٢ ـ أبو تمام

بين عبقريته وسرقاته

للأستاذ دريني خشبة

استطاع أبو القاسم الآمدي أن يحشد لنا في كتابه الموازنة طائفة كبيرة جداً من أشعار أبي تمام التي سطا فيها على معاني غيره من الشعراء ، والتي تركها تختمر في رأسه — كما يعبر الآمدي — أو التي اتكأ فيها على نفسه — كما يقول أبو بكر الصولي — حتى أخرجها آخر الأمر زائدة المعنى ، أو معدولاً بها عن معناها الأصلي ، أو مذهوباً بها تلك المذاهب الطريفة التي تصورها ابن الأثير ، والتي قسمها إلى تلك الأقسام الخمسة : من نسخ ، ومسخ ، وسلخ ؛ وأخذ المعنى مع الزيادة عليه ، وعكس المعنى إلى ضده ، على نحو ما بيناه في الكلمة السالفة . وكان ابن الأثير يضرب الأمثال لكل من هذه الأقسام بأبيات شائقة لشعراء مختلفين ، وكان ماخص منها أبا تمام شيئاً كثيراً. وسنجتهد هنا أن نطبق موازينه على السرقات التي أوردها الآمدي ، لنرى أن أبا تمام كان يسرق حقاً ، وكان يستر هذه السرقة فتخفى على الناس أحياناً ، ثم تكشف عن نفسها أحياناً أخرى ، بل أحياناً كثيرة ... وسنرى أنه كان يزيد في المعاني المسروقة معاني مبتكرة يوفي بها على غاية الحسن ... بل يظهرها بها في صور عجيبة لا يقدر عليها إلا خيال فنان مبتكر ، قادر على التوشية الحيَّة ، والتلوين البديع . وسنرى أيضاً أنه كان يغلو في صوره ، حتى يجعلها ضرباً من الألغاز ، يكاد ينقلب إلى ضرب من السخف ، لما يحشد فيها من الإغراب والتعقيد ... الأمر الذي جعل حساده يقولون فيه : إنه ابتعد عن عمود الشعر ، لإسرافه في استعمال أدوات البديع ... استعمالاً حسياً أحياناً ، واستعمالاً معنوياً في أغلب الأحيان

وسنرى كذلك أن أبا تمام كان يمسخ المعاني المسروقة ، ويقصر بها عن صورها الأصلية الرائعة ، وسنرى أن علامات السرقة التي نص عليها ابن الأثير ، ولا سيما في السلخ بأنواعه ، مستوفية في كثير من سرقات شاعر المعاني الخالد

١ — فمن نسخ أبي تمام قوله :

وركب كأطراف الأسنة عرَّسوا
على مثلها والليل تسطو غياهبه

أخذ صدره من بيت كثير :

وركب كأطراف الأسنة عرَّسوا
قلائص في أصلابهن نُحول

وأخذ قوله :

لما رأى الحرب رأيَ العين نوفلس

والحرب مشتقة المعنى من الحَرَب

من قول إبراهيم بن المهدي :

ومسمر الحرب ، واسم الحرب قد علموا
لو ينفع العلم ، مشتق من الحَرَب ؟

ولم ينفعه ستر السرقة بقوله مشتقة المعنى بدل اشتقاق الاسم

وأخذ قوله :

كأن بني نبهان يوم وفاته نجوم سماء خرَّ من بينها البدر

من قول جرير :

أمسى بنوه وقد جلَّت مصيبتهم
مثل النجوم هوى من بينها القمر

أو من قول مريم بنت طارق :

كنا كأنجم ليل بينهـــا قمر
يجلو الدجى ، فهوى من بينها القمر

وأخذ قوله :

وكانت لوعة ثم استقرت كذاك لكل سائلة قرار

من قول الفرزدق :

أنتم قرارة كل مدفع سوءة ولكل سائلة تســـير قرار

وأخذ قوله ، وهو يجمع بين النسخ والمسخ :

فلو أبصرتهم والزائرون لهم لما عزَّت الحيم من البعيد

من قول محمد بن بشير الخارجي :

وإذا رأيت صديقه وشقيقه لم تدر أيهما أخو الأرحام

ولا غرو أن بيت الخارجي أروع !

وأخذ قوله ، وزاد في معناه وأبدع :

تعوّد بسط الكف حتى لو انه دعاها لقبض لم تجبه أنامله

من قول مسلم بن الوليد :

لا يستطيع يزيد من طبيعته عن المروءة والمعروف إحجاما

والنسخ هنا كلى فى المعنى ، مع تجويد فيه ، وتبديل للألفاظ

وقوله فى مغنية تغنى بالفارسية :

ولم أفهم معانيها ولكن شجت كبدى فلم أجهل شجاها

من قول الحسين بن الضحاك فى الظرف نفسه :

ولا أفهم ما يعنى مغنينا إذا غنّى

سوى أنّى من حيّ له ، أستحسن المعنى !

وذلك مما يلحق أيضاً بآخر ضروب السلخ عند ابن الأثير ، وهو الأخذ عن معنى ثم الانتهاء إلى جنتين مختلفتين ! والحقيقة أننا حرنا فى أى القولين أشجى وأيهما أملح وأروح ؟

وأخذ صدر البيت التالى ، وعدل بعجزه :

لايحسب الإقلال عُدْما ، بل يرى

أن القلل من المروءة معدم

من قول أبى داود الإيادى :

لا أعد الإقلال عدما ، ولكن فقد من فقدته الأعدام

وعجز بيته :

فتى فى يديه البأس يضحك والندى

وفى سرجه بدر وليث غضنفر

من بيت مسلم :

تمضى المنايا كما تمضى أسنته كأن فى سرجه بدراً وضرغاما ؟

ونسخ هذين البيتين :

ما اليوم أول توديعى ولا الثانى

البين أكثر من شوقى وأحزانى

وما أظن النوى ترضى بما صنعت

حتى تشافه بى[1] أقصى خراسان

من قول الأرقط بن دعبل :

تهنه دموعك سن سح وتسجام

البين أكثر من شوقى وأسقامى

وما أظن دموع العين راضية حتى تسح دما هطلا بتسجام

ونسخ هذين البيتين .

يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقى اللحاء

فلا والله ما فى العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

(١) فى الآمدى (حتى تبلغنى) وقد أثبتناها كما فى الديوان .

من قول النظار بين هاشم الأزدى :

يعف المرء ما استحيا ويبقى نبات العود ما بقى اللحاء

وما فى أن يعيش المرء خير إذا ما المرء زايله الحياء

ولا يخفى أن تعبير أبى تمام أسلس ، وإن لم يبق على معنى الأزدى المسكين !

وقوله :

إليك هتكنا جنح ليل كأنه قدا اكتحلت منه البلاد بإثمد

من قول أبى نواس :

أبِنْ لى كيف صرت إلى حريمى

ونجم الليل مكتحل بقار ؟

ولا يخفى أن أبا تمام وإن سرق من أبى نواس إلا إنه أجاد عنه ولم يقع فيما وقع هو فيه من قبح بتكحيل النجم بالقار — أى الزفت ؟ —

ونسخ قوله :

حمراء من حلب العصير كسوتها

بيضاء من حلب الغمام الرقرق

من قول مسلم :

صفراء من حلب العصير كسوتها

بيضاء من حلب النيوم البُجَّس

وقوله :

وأحسن من نَوْر تفتّحه الصبا

بياض العطايا فى سواد المطالب

من قول الأخطل :

رأين بياضاً فى سواد كأنه بياض العطايا فى سواد المطالب؟

وقوله ، وهو يجمع بين النسخ والسلخ :

لو كان فى الدنيا قبيل آخر بإزائهم ما كان فيها معدم

من قول بشار :

لو كان مثلك آخر ما كان فى الدنيا فقير

ونختم هذه المنتخبات التى وضعناها فى باب النسخ ، والتى تخيرناها من أكثر من ألفى بيت مما حشد الآمدى من سرقات أبى تمام ، بما رواه أبو محمد بن اليزيدى[1] قال : قال دعبل : لما مات ذفافة العبسى رثاه أبو سلمى المزنى ، من ولد زهير ، واسمه مكنف ، وكان بينهما هجاء فى إخاش بقصيدة منها :

(١) ذكر الصولى الواقعة ونسب روايتها إلى محمد بن موسى بن حماد ص ١٩٩